المحاضرة الأولى

تاريخ الفكر اللّساني (1)

- أولا: العصور القديمة

تمهيد:

الاهتمام باللغة قديم جدا وليس وليد العصر الحديث حتى وإن كان ينقصه نوع من الدقة والنظامية والشمول، والتي هي من أهم خطوات المنهج العلمي فهو أسهم بشكل أو بآخر في إرساء دعائم الدراسات اللسانية الآتية من بعده.

وفيما يلي سنحاول عرض بعض المجهودات التي تؤرخ لنشأة الفكر اللغوي الإنساني:

1- المصريون القدامى:

نظرا لأهمية الكتابة فقد اهتم بها المصريون القدامى أشد الاهتمام وأصبح الكاتب من أهم الشخصيات بالنظر إلى مكانته الرفيعة التي يحظى بها عند الفرعون كما تكون سببا في استوزاره وإلحاقه بالطبقة النبيلة من جهة، وما تدر عليه من مكاسب كثيرة من جهة أخرى.[1]

أما مرجعيتها في الحضارة المصرية القديمة تعود للإله طوت (Thot) إله الفكر حسب أكثر الدارسين.[2]

أ- مراحل الكتابة في الحضارة المصرية:

لقد مرت الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) والتي تعني الصور المقدسة بمراحل هي[3]:

أ-1: المرحلة التصويرية:

في هذه المرحلة تُتّخذُ الصور كوسائل للتعبير عن الأفكار فمثلا:

صورة القدم تدل على فكرة المشي، صورة العصفور تدل على فكرة الطيران. وعندما أرادوا تمييز الفعل عن الاسم أردفوا ذلك بإشارة.

أ- 2: المرحلة المقطعية الصوتية:

إن عجز الكتابة التصويرية على مواكبة العملية التواصلية بما يتخللها من أسماء وأفعال وأدوات والإحالة إلى ما هو موجود خارج الحدث الكلامي ابتكرت الكتابة المقطعية والمقصود بها أن تعبر الصورة عن مقطع كلمة فتحتفظ بقيمتها الصوتية فقط فتصبح تلك الكلمة تدل على ذلك المسمى من دون أن توجد علاقة

---

(1)- ينظر: لبيب عبد السَاتر، الحضارات ط7، دار المشرق بيروت، لبنان، ص13،12 ،14.

(2)- المرجع نفسه، ص 24.

(3)- المرجع نفسه، ص 18، 19، 20.

بينهما. ولم يتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى بشكل نهائي بل كان الانتقال مزيجا بين ما سبق وما لحق حتى وصلت الأشكال والأحرف إلى السبعمائة، وعمل الكهنة إلى اختزالها إلى الكتابة الهيراتيقية (Hieratique) ثم اختزلها العلمانيون منذ (700 ق.م) فكانت الدومييتيقية (Dometique)التي ظلت في الكتابة القبطيّة.

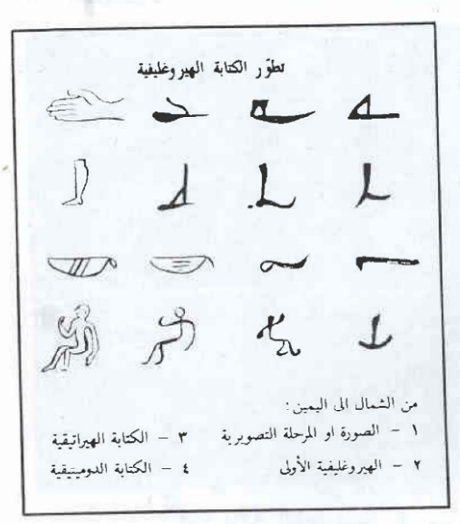

ورغم انعدام الدراسات اللغوية إلا أن فضل مكتشفي الكتابة محفوظ عبر التاريخ، بل هم من عظماء علم اللغة يقول جورج مونان معترفا بفضل القدامى: "إن الذين اخترعوا وطوروا الكتابة كانوا لسانيين كبارا ...وهم من اخترعوا اللسانيات فعلا".[4]

2- السومريون والأكاديون [*]:

(1) - ينظر: زبير دراقي، محاضرات في اللسانيات التاريخية والعامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص10.

(*)- السومريّون: شعب أغراب عن بلاد الرافدين بدلالة لباسهم الصوفي وصناعتهم للنحاس، لأن الصوف لا يطاق في البلاد الحارة كالعراق والمعادن لا مناجم لها فيه، فهم ربما من إيران أو من جبال القوقاز أو الأناضول. وكان ذلك حوالي 3200 ق.م فهم شعب آري.

- الأكّاديون: شعب سام أعجب بالحضارة السومرية فانتقل وا إليها حوالي 3600 ق.م وبنوا مدينتهم المشهورة (كيش)، ولما كثرت أعدادهم جمع كلمتهم زعيمهم (سرجون) وشاد عاصمة دعاها (أكّاد)، ثم حارب السومريين وغلبهم. ينظر: أطلس الحضارات ص 24، 25. وينظر: الحضارات: ص36، 37.

ترك السومريون والأكاديون آثارا فكرية كثيرة ساعدهم في ذلك اختراعهم للخط المسماري الذي يبينه ولفنسون: "وليس يجري الخط المسماري على نظام الخط الهيروغليفي الذي يعتمد على الصور، ولا على نهج الخط الكنعاني الذي يعتمد على الحروف، بل له نظام خاص ليس بصوري خالص وليس بحرفي صرف ...ويستعمل الخط المسماري على نوعين من العلامات، يشتمل النوع الأول منها على علامات تعبر عن معنى كلمات كاملة وكانت في بادئ أمرها صورا كالخطوط الهيروغليفية، ولكنها بعد استعمال القلم المسماري انقلب شكلها وصارت خطوطا لا علاقة بينها وبين الصورة الأصلية التي تعبر عنها، ويسمي الإفرنج هذا النوع أصوات".[5]

وفيما يخص نظام الكتابة السومرية فكانت في البدء تكتب من اليمين إلى الشمال كالعربية، ومن فوق إلى تحت كالصينية، ثم تطورت وأصبحت تكتب أفقيا من الشمال إلى اليمين. أما سبب تسميتها فعائد إلى آلة كتابتها التي تشبه المسمار في دقته التي تسمح بالطبع على الألواح الطينية التي تجفف وتحرق فيما بعد حتى تعمر طويلا.[6]

أما الكتابة المسمارية فقد مرت بثلاث مراحل[7]:

1- قراءة النص الأكادي، ونقل المقاطع الصوتية المسمارية إلى العربية.

2- تجميع المقاطع الصوتية وتكوين الكلمات.

3- القراءة والترجمة.

ومثال ذلك:

1- بَعْ، عَلْ، شَ، مِ، اِي واِرْ، صَ، تِمْ.

2- بَعْلْ، شِمِي وإِرْصَتِمْ.

3- ربُّ السماوات والأرض.

وبعد اختلاط الأكّاديين بالسومريين نتجت ازدواجية لغوية (Bilingualism) دامت أكثر من 600 عام ولكن سرعان ما حلت الأكادية محل السومرية وعُرفت بعد ذلك بالبابلية نسبة لعاصمتهم بابل. ومن بين البحوث اللغوية التي تطرق إليها الأكّاديون مبحث نشأة اللغة التي ترجع حسب معتقدهم إلى الرجل السمكة (Ounnes)الذي

---

(1) -ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 2005، ص3.

(6)- ينظر: لبيب عبد السَاتر، الحضارات، ص48.

(3)- ينظر: www.mojtamai.com

جاء إلى الأرض ليعلم الناس الفنون والعلوم والتقنيات. كما أنهم اهتموا بالصناعة المعجمية منذ (2700 ق.م) حيث صنعوا معاجم أحادية وثنائية اللغة (سومرية . أكادية) وحتى رباعية اللغة (سومرية . أكادية . حورتية . يوغارتينية) خاصة لما اكتشف السومريون وجود نوعين مختلفين للغتهم؛ أي لهجتين هما: "إيم . صال" (Eme Sal) و"إيم . كو" (Eme-ku).[8]

3- الصينيون القدامى:

الصينيون من الشعوب الأولى التي اهتمت بلغتها جمعا وتنسيقا، يقول المستشرق فيشر: "إذا استثنينا الصين لا يوجد شعب آخر يحق لو الفخار بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها، بحسب غير العرب".[9]

ومن بين البحوث التي لقيت اهتمام الصينيين مبكِّرا:

✓**نشأة اللغة**: فمنهم من رأى أنها من قبيل الاصطلاح وهذا ما يؤكده الفيلسوف الصيني هسون . تسو (ت 238 ق.م): "إن تسمية الأشياء لا تتم إلا بالموافقة وبعد ذلك تصبح التسمية عادية ومناسبة وهناك من الآراء التي ترى بأن أصل اللغة طبيعية".[10]

✓**نظام الكتابة**: اخترع الصينيون نظام كتابة يعرف باسم البا . كوا (Kwa-Pa) الذي كان أول ظهوره حوالي (2850 ق.م) وتعزى للإمبراطور الأسطوري فوهي (Fou - Hi) وهي عبارة عن رموز فكرية (Ideograms) تمثل أفكار وأشياء لا كلمات خاصة بهذه الأفكار أو تلك الأشياء.[11]

✓**صناعة المعاجم:** إن المكتبة الصينية تتوفر على مخزون معجمي وفير وهذا راجع لاهتمام الصينيين الكبير بلغتهم حيث صنفوها حسب الترتيب الصوتي ومن بين أهم المعاجم الحضارة الصينية معجم كوي وانج (kuyewang)، ومعجم شروان (Shwoman) الذي ألفه هوشين (Shin-Hu)، ومعجم أرهيا (Erhya)هذه المعاجم لها الأثر الكبير في تطور المعجم الصيني.[12]

---

(1)- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 5.

(9)- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، ط1، 1971، دار المعارف، مصر ، ص 57.

(10)- ينظر: المرجع السابق، ص 5.

(11)- م ن،ص ن.

(12)- ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب،ص 23.

4- الفينيقيون(*[13]*):

إن أهم إنجاز قدمه الفينيقيون للعلوم اللغوية هو اختراعهم للأبجدية، وقد أشاع المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن "قَدْمُوسْ" هم مبتكرو حروف الهجاء، وكانت ثمانية عشر حرفا.

لقد تجاوز الفينيقيون مرحلة الكتابة التصويرية والمسمارية إلى الأبجدية الحرفية وتوصلوا إلى حصر كل الأصوات في عدد قليل من الأحرف فاشتملت أبجديتهم على اثنين وعشرين حرفا ساكنا من دون الحركات، وبذلك لم يعودوا يحتاجون للصورة للدلالة، فالثور مثلا اسمه في الفينيقية "ألف" ودلّت صورته على الحرف الألف، وصورة البيت تدل على حرف "الباء"، وصورة الجمل جِمال في الفينيقية تدل على "الجيم" والمؤكد لدى الباحثين أن الكتابة الفينيقية لها أثر كبير على أبجديات العالم كلها، وهذا ما يؤكده علي عبد الواحد وافي: "فمن الفينيقية اشتق الرسم التدمري والنبطي، ومن التدمري اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية. ومن الخطين النبطي والسّرياني اشتقت حروف الهجاء العربية. ومن الفينيقية أيضا اشتق الخط الآرامي، وعن الخط الآرامي أخذت الحروف الهندية الباكترياتية ومنها اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في كل لغات الهند وسيام وكامبودج وماليزيا. ومن الرسم الفينيقي اشتق كذلك الرسم السبئي أو اليمني الذي اشتق منه كل الخطوط الحبشية السامية، ومن الفينيقية كذلك اشتق الخط الإغريقي، ومن الخط الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية، ومن الرسمين الإغريقي واللاتيني تفرعت جميع أنواع الخطوط المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحديث".[14]

وباكتشاف الفينيقية أيضا اتسع نطاق تبادل المعرفة والفكر والثقافة والأدب، وللعلم فإن كثيرا من المفردات الفينيقية لا تزال موجودة في اللهجة اللبنانية ومثال ذلك:

- ✓أسماء الأعلام كـ: زينون ـ إشموني ـ سلّوم ـ زكّا.

(**)- الفينيقيون: يعرفون بكنعاني الشمال وهم شعب سام هاجر من الجزيرة العربيةحوالي 1300 ق.م أو 1400 ق.م واستقروا بجوار المتوسط. و"فينيقيا" باليونانية تعني المنطقة الساحلية من سورية تمتد من شمال"رأس شمرا" حتىجبل الكرمل في الجنوب من سورية، وفي الشرق تحدها سلسلة جبال لبنان الغربية، أما فيالغرب فلها واجهة بحرية عريقة. ينظر: أطلس الحضارات، ص68. وينظر: الحضارات ص74.

([13])- م ن، ص 23، 33.

✓أسماء القرى: بعلشميه . قرطاضة . قبر شمون . بزيزة . بيت مري، وكل الأسماء التي تبدأ ب لفظة كفر (قرية) مثل: كفر فالوس كفر رمان . كفر دبيان. كما أن القارئ اللبناني لا يجد صعوبة في ترجمة وفهم التراث الفينيقي مثل:

طل شمين شمن ارص بمعنى طلُّ (مطر) السماوات سمن الأرض.[15]

5- اليهود:

اليهود شعب سام لهم دينهم وهو التوراة، ولعل أول محطة لغوية اهتموا بها هي:

نشأة اللغة حيث رأوا أنها توقيف من الله وأن أول من تعلمها آدم عليه السلام وهذا ما يورده الإصحاح الثاني عن تسمية الحيوان: "وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية".[16]

أما الدراسة اللغوية فاليهود لم يولوا لها الاهتمام، ولم تبدأ إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين فأخذوا عنهم، وهذا ما يؤكده روبنز (Robins):"إن الدراسات العبرية لم تبدأ في الزمن القديم، ولكن لحسن الحظ فقد ظهرت بعض المبادرات الفردية في العصور الوسطى نتيجة الاحتكاك الثقافي والحضاري بمسلمي الأندلس، حيث كانت الدراسات العربية نموذجا مثاليا يقتدي به اليهود"[17]. هذا حتى وإن دعا بعض الباحثين أصالة العبرية وقدمها على كل اللغات، كما فعل المؤرخ جوزيف (Josephe) بأنها كانت قبل طوفان نوح عليه السلام، وأن الملائكة كانت تنشد مزامير داوود بالعبرية حسب ادعاء كلود ديريت (Claude duret).[18]

6- الهنود :

إن اهتمام الهنود بلغتهم جعلهم يُورِّثون العالم أفكارا غنية أسهمت بشكل أو بآخر في انطلاق الفكر البشري إجمالا وبالخصوص في المجال الصوتي، وللعلم فالمنطلق البحثي الهندي كان دينيا من أجل الحفاظ على الكتاب المقدس "الفيدا"

([15])-لبيب عبد السَاتر، الحضارات، ص 89.

([16])- أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص10.

([17])- م ن،ص 11، 10.

([18])- ينظر: المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، دار الوعي الجزائر ط1، 2011، ص 41.

الذي ظهر حوالي(1200-1000 ق.م) والمكتوب باللغة السنسكريتية وهي لغة قديمة احتفظت بمكانتها الرسمية كونها لغة الدين والأدب، إضافة إلى أنها حافظت على أقدم الملاحم الهندية كـ: "الماها بها راتا" المتضمنة قصة العنف والمغامرة والحروب بإشراف الآلهة، وملحمة "رامايانا" التي تقص رواية السفر والأهوال و التوق إلى الحبيب الوفي.[19]إلى جانب اللغة السنسكريتية توجد لغة أخرى للاستعمال اليومي هي لغة (براكيت).[20]

وفيما يخص مشكلة نشأة اللغة، فقد عالجها الهنود من أكثر من زاوية، وتعددت آراؤهم بين محاكاة الطبيعة من جهة، والتواضع الاجتماعي من جهة ثانية. وبهذا يمكن لنا القول أنهم اهتدوا إلى العلاقة الاعتباطية بين عناصر الدليل اللغوي، واهتدى كذلك الهنود إلى أهمية السياق في تحديد دلالة الكلمة، ودرسوا الحقيقة والمجاز.[21]

- الدراسة النحوية:

النحو في اللغة العربية تقابلها كلمة "yakarana" في اللغة السنسكريتية التي تعني: الفصل والتحليل.[22]

كما أن النحو يعتبر من أقدس المقدسات على الخصوص وهذا ما توضحه مقولتهم المشهورة "إن الماء هو أقدس شيء على الأرض، والكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء، ولكن النحو أكثر قداسة من الكتب المقدسة".[23]

وأشهر كتبهم المثمن لـ بانيني (Panini)(ق.5 أو 4 ق.م) وسمي بهذا الاسم لأنه يحتوي على ثمانية أجزاء فيه أربعة آلاف قاعدة نحوية تستوعب كل القواعد السنسكريتية.

- ✓عالج في القسم الأول: تعريفات عامة، قواعد للشرح، مشكلات صوتية.
- ✓عالج في القسم الثاني: الإبدال، هدف التصريف، قواعد الجنس(gender) والعدد.
- ✓عالج في القسم الثالث:موضوع اللواحق الأساسية.
- ✓عالج في القسم الرابع والخامس: اللواحق التي يمكن إضافتها للأصل غير العقلي ولواحق تصريفية.

([19])- لبيب عبد السَاتر، الحضارات :ص .308.

([20])- ينظر: محمد حسين عبد العزيز، علم اللغة الحديث ، مكتبة الآداب القاهرة، ط1 ،2011 .ص 205.

([21])- روبنز، موجز تاريخ اللغة في الغرب، تر أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر1997.ص 321.

([22])- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور ،ص 13.

([23])- ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، بيروت دار الثقافة. 1972، ص 73.

✓عالج في القسم السادس والسابع: بحوثا صوتية صرفية morphophonemic.

✓عالج في القسم الثامن: موضوعات متعددة.[24]

ويتميز النحو البانيني بخصائص ثلاث تعتبر من أهم خطوات البحث العلمي اللغوي في اللسانيات الحديثة وهي: الشمولية (Exhaustiveness)، الانسجام (Consistency). الاقتصاد (Economy).[25]

- **الدراسة الصوتية**: أبدع الهنود في شخصية بانيني في المجال الصوتي، حيث تطرق إلى المخارج الصوتية ورتبها بدءا بأعمقها وصولا إلى الشفتين، كما تطرق إلى الأصوات فوق القطعية كالنبر والتنغيم، واهتدى إلى فكرة الجر اللغوي وما يلحق به من حركات وأدوات، وكذلك مفهوم zero morphem الصفر اللغوي ومثاله في العربية أن الفعل الماضي يكون مؤنثا حين تلحقه التاء، ويكون مذكرا حين يخلو منها، وبهذا يتعرف الجنس في الفعل بأحد أمرين: تاء التأنيث أو خلوه منها.

إن التراث الهندي أثّر في التفكير اللغوي الغربي حيث منحهم الوصف الكامل والدقيق وقيام الدراسات المقارنة عند اكتشاف السنسكريتية.[26]

7- الإغريق:

لليونانين باع طويل في الدراسات اللغوية، ويتجلى عملهم ذاك فيما قدمه أفلاطون (429-347 ق.م) بدأ برأيه في أصل اللغة على أنها من صنع الطبيعة وذات قوانين غير قابلة للتغيير، وبهذا الرأي أخذت مدرسة الشذوذيين [*]، وعلى رأسها قراطيس، ومدرسة الرواقيين وعلى رأسها زينون(ت حوالي244 ق.م) وكان ذلك حوالي سنة (30 ق.م). كما أن هناك من يرى أن اللغة اصطلاح وعلى رأسهم أرسطو(38-322 ق.م) تلميذ أفلاطون. ومن أنصار هذا الرأي القياسيون (Analogists)، وكما يرى أرسطو أن العالم يتكون من شكل ومادة، وأن الشكل أهم من المادة كما أضاف إلى أعمال أستاذه فيما يخص تقسيم الكلام إلى اسم وفعل الرابطة (Syndesmoi)حيث تشتمل كل ما يخرج عن الأسماء والأفعال وقدم مقولات نحوية شهيرة منها: الجوهر يقابل الاسم، الكيف يقابل الصفة، الكم يقابل العدد، الأين يقابل المكان، المتى يقابل

([24])- ينظر: محمد حسين عبد العزيز، علم اللغة الحديث، ص 251.
([25])- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور،ص14.
([26])-ينظر: علم اللغة الحديث، ص 253، 254.

الزمن ...كما ركز على مبدأي التعريف لغاية معرفة الماهية وتحديد المعنى، ومبدأ التعليل كان الهدف منه إقامة البراهين والعلل المؤثرة في كل الأشياء إذ لا تعرف الأشياء إلا بمعرفة العلل.[*]

- **الاسكندريون** (Alexandrins)(300-150 ق.م)

اعتمد الاسكندريون على مؤلفات سابقيهم وعملوا على تنقيحها من التحريف ومنها مخطوطات الشعر الهوميرية كما شرحوا الغامض منها.

وفي القرن(2 ق.م) ألف العالم الإسكندري كتابا في النحو الإغريقي بعنوانTechne Grammatike وهو من أهم المؤلفات النحوية في العالم الغربي ويتألف من خمس عشرة صفحة، ويقع في خمسة وعشرين جزءا، ويشتمل على حوالي أربعمائة سطرا ومن أهم ما جاء في الكتاب تقسيم الكلام على ثمانية أقسام:

1- الاسم Onoma (Noun).

2- الفعل Rhema(Verb).

3- اسم الفاعل والمفعول Metoche (Participle).

4- أداة تعريف أو تنكيرArthon(Article).

5- الضميرAntonymia (Pronoun).

6- حرف الجر Prothesis (preposistion).

7- الظرف Epirrhema(Adverb).

8- الرابط Syndesmos(Conjunction).[27]

- **الرّومان :**

المتتبع للدرس اللساني الروماني يجده تقليدا للإغريق وأن أول من نقل الدرس الإغريقي إلى الرومان هو قراطيس (Crates)، كما أن حكام الرومان شجعوا المترجمين للتراث الإغريقي، إضافة إلى إحياء اليهودية المسيحية حيث أصبحت دين الدولة الرومانية في (ق4 ق.م) أما النحاة فمن أشهرهم:

1- فارون (Varro) (116-27 ق.م) وهو أول مؤلف روماني في المجال النحوي، ألف مؤلفا ضخما بعنوان: اللغة اللاتينية De Lingua Latina بلغ ستة وعشرين جزءا

(*)- الشذوذيون: الذين يعتمدونالأوزان الشاذة ويعتبرونخا صائبة حتى وإن لم يستطع القياس ضبطها.

(27)- م ن،ص 22.

قسمه ثلاثة أقسام رئيسة هي: علم التراكيب(Syntax)،علم الصرف(Morphlogy)، علم أصول الكلمات (Etymology)،كما لخص فيه الأعمال الإغريقية.

2- كونتيلين Quintilina (35م-90م) ألف كتابا في فن الخطابة، كما اعتبر النحو دراسة تمهيدية للتذوق الكلي والحقيقي للأدب في التربية الليبرالية. وعلى العموم فالدرس الروماني لم يرق إلى ما توصل إليه الفكر اللساني عند سابقيه وبخاصة مع الفكر الإغريقي.[28]

([28])-ينظر: أحمد مومن ،اللسانيات النشأة والتطور،ص 26، وينظر:محمد حسين عبد العزيز، علم اللغةالحديث،ص259.